المشروع الحضاري وإسلامية المعرفة
في فكر الدكتور عماد الدين خليل

م.م. عثمان موفق أحمد محمد

The cultural project and the knowledge being Islamic in Dr. Emad Al- Deen`s Khaleel thinking

Asst. teacher. Othman Muafaq Ahmed Mohamad

The research talks about the knowledge being Islamic as it is a cultural project for the world. For Dr. Emad Al-Deen Khaleel, it is necessary for a person who seeks the arrangement and development of the alphabetical of reality and looking forward.

Le projet civilisationnel et l'islamisation de la connaissance dans la pensée de Dr. Emad Al Din Khalil

M.ajoint: Othman Mowaffaq Ahmed Mohamed

La recherche traite les égards de l'islamisation de la connaissance comme étant un projet civilisationnel au monde où le Dr. Emad Al Din Khalil l'a considéré une nécessité pour l'homme qui cherche à diriger et à developer les priorités de la réalité et ses aspirations…

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب هدىً ورحمةً للعالمين، والصلاة والسلام على نبيه الكريم ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم الى يوم الدين.

فإن عربة النهضة لها قوتان دافعتان الأولى هي الدين والثانية هي العلم، وعند حدوث خلل في تطبيق إحداها فإن المسيرة ستكون متعثرة غير سوية، ونجاح الإنسان في مهمة استخلافه على الأرض، يكون من خلال إعماره للأرض وفق ضوابط التوجيه الإلهي... لذا كتب الدكتور عماد الدين خليل أبحاثاً كثيرة للكشف عن العلاقة الوثيقة بين الخالق والكون، بين الدين والعلم، ويصنف الدكتور عماد الدين خليل تلك الأبحاث والمحاولات إلى ((اتجاهات أساسية ثلاثة تمثل أولها في تفحص البنية الدقيقة المحكمة للكون والعالم والحياة على ضوء كشوفات العلم الحديث، وتأكيد القول بان هذا الأعجاز البنائي لا يمكن ان يتحقق الا على يد قدرة مريدة مدبرة ومتفردة هي الله سبحانه. وهذا ما نجده في أبحاث عديدة من مثل (العلم يدعو للإيمان) [١] لموريسون[٢]، و(الله يتجلى في عصر العلم) [٣] لجماعة من العلماء، و(مع الله في السماء)[٤] لأحمد

(١) ترجمة: محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة، القاهرة ، ط٤ – ١٩٦٢م.

(٢) عالم امريكي، والرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الامريكي لمدينة نيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، وزميل في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني. من مؤلفاته: (العلم يدعو للايمان) و(الإنسان لا يقوم وحده). ينظر: العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ص ١.

(٣) ترجمة: عبد المجيد الدمرداش، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ط٣– ١٩٦٨م.

(٤) دار القلم– بيروت ، ط١، ١٩٨٣م.

زكي[١] وغيرها.. وتمثل ثاني تلك الاتجاهات في شرح وتحليل مجموعة الاشارات القرآنية إلى هذا الإحكام في الكون والعالم والحياة، والقرآن الكريم يعود المرة تلو المرة لكي يؤكد هذه الحقيقة الكبيرة الخطيرة ويدعو الإنسان إلى التمعن فيها وادراك ابعادها التي كادت لبداهتها ووضوحها ان تغيب عن العيان.. !!

وأما ثالث الاتجاهات وأكثرها ارتباطاً بالموضوع فيتمثل بالمحاولات العديدة، الخصبة لتفسير الآيات، والمقاطع القرآنية التي كشفت عن عدد من الحقائق في الكون والحياة والعالم، ما كان الإنسان يومها بقادر على الكشف عنها، وجاء العلم أخيراً لكي يزيح عنها النقاب ويؤكد بأساليبه الخاصة صدق المقولات القرآنية))[٢].

وهذا الارتباط الوثيق بين القران الكريم والعلم الحديث يتضح من خلال حشد من الآيات البينات، والتي ينظر إليها الدكتور عماد الدين خليل ((وفق أبعاد أربعة توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم وآفاقه وأهدافه، فيما يعرف بفلسفة العلم ونظرية المعرفة، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة، ويعرض ثالثها لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة، وخاصة الطبيعة والجغرافية وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصرفة، ويدعو رابعها لاستخدام هذه السنن والقوانين والتي

---

(١) احمد زكي عاكف، (١٨٩٤- ١٩٧٥م)، عالم كيميائي واديب واحد رؤساء جامعة القاهرة السابقين، ومؤسس اكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا في مصر، ولد بالسويس في مصر، ذهب إلى انجلترا للدراسة فقضى هناك عشر سنوات، نال الدكتوراه العلمية من جامع لندن عام (١٩٢٨م)، وهي اعلى ما تعطيه الجامعات من درجات، عاد إلى مصر وعمل استاذا للكيمياء في كلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم وكيلا فعميدا للكلية فرئيسا للجامعة، اسس (مجلة العربي) الكويتية، عام (١٩٥٨م) وكان رئيس تحرير لها ولمدة (١٧) عام. من اشهر مؤلفاته: (في سبيل موسوعة علمية) و(مع الله في السماء) و(مع الله في الارض) و(قصة الكيمياء). ينظر: موسوعة المشاهير، ج١/ص١٢٧- ١٢٩؛ www.wikipedia.org .

(٢) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير (دمشق/بيروت/٢٠٠٨م) ص ٦.

كشف عنها منهج تجريبي في البحث من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم، فيما يعرف بالعلوم التطبيقية التقنية)) (١).

فالإسلام يسعى للوصول بالإنسان إلى الوراثة الحضارية، وهذا ((لايتحقق بالأماني والرغبات، يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ النساء: ١٢٣ ، كما لا يتحقق بالفلسفات الباردة المبعثرة، التي لا نصيب لها من الواقع، ولا بالفكر المجرد البعيد عن الفعل، وإنما يتحقق بإنتاج النماذج، والقيام بأعباء الإستخلاف، وقيام العمران البشريّ، والارتفاق بموجودات الكون وحسن تسخيرها وفق منهج الله، الذي يحقق الحياة الطيبة في الدنيا، والعاقبة الحسنة في الآخرة.. يقدم الأنموذج الأصلح للوريث الحضاري، على مستوى الإنسان، والعمران، ونعم الحياة)) (٢).

فالعقل المسلم عندما بنى حضارة عالمية امتدت من الصين شرقا إلى بلاد الغال(٣) (فرنسا) (٤) غربا ((كان يدرك مهمة الإستخلاف ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة: ٣٠، وكان يدرك غاية الوجود في العمران: ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

(١) مدخل إلى إسلامية المعرفة، د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير، (دمشق/بيروت٢٠٠٦م) ص ٢٣ ؛ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٧.

(٢) الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، د. عمر عبيد حسنه، المكتب الإسلامي (بيروت/١٩٩٨م) ص ١٤٧. وللوقوف على تفاصيل اكثر لهذا الموضوع ينظر للدكتور عماد الدين خليل: أولى ملاحم القرن، ص ٨٠– ٨٢؛ ريبورتاج حوار في الهموم الإسلامية، ص ١٥٨.

(٣) هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهم شعوب كلتية، كانت تمتد على شمال ايطاليا وفرنسا وبلجيكا، وكانت بلاد الغال تضم المناطق التي تشمل الآن فرنسا وبلجيكا وجزء من ألمانيا. ينظر: نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل حسين الحلبي الغزي، (ت: ١٩٣٣م) دار القلم، ط٢ (حلب/١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ٥٧٩/٣؛ www.wikipedia.org.

(٤) جمهورية فرنسا، قارتها اوروبا، وعاصمتها (باريس)، يحدها من الشمال بلجيكا وبحر المانش، ومن الغرب المحيط الاطلنطي، والشرق سويسرا وايطاليا. ينظر: موسوعة دول العالم حقائق وأرقام، محمد الجابري، مجموعة النيل العربية (القاهرة/٢٠٠٠م) ص ١٨١.

وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾هود: ٦١ ، وارتباط العمران بالعبادة وكونه مظهرا من مظاهرها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات: ٥٦.. كما كان يدرك أمانة التسخير لتيسير مهمة الاستخلاف وطبيعة الابتلاء ليظهر الأحسن ويبقى الأتم والأكمل في هذه الحياة..)) [١].

وفيما يلي شرح موجز لعدد من المبادئ الإسلامية الأساسية في الحياة، والتي تمثل قيما ذات ارتباط وثيق بالفعل الحضاري، تعمل على تعزيز المناخ الملائم لهذا الفعل وتمكنه من الاستمرار، وهذا ما سأبحثه في التمهيد والمباحث الآتية:

التمهيد: مفهوم إسلامية المعرفة.

المبحث الأول: مبدأ الإستخلاف وعمارة الأرض.

المبحث الثاني: مبدأ التسخير.

المبحث الثالث: مبدأ التوازن.

المبحث الرابـــــع: مبدأ الارتباط المحتوم بين الخلق والخالق.

(١) أبحاث ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة، د. أبو اليزيد العجمي وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (هيرندن/فيرجينيا/١٩٩٤م) ص ١٠.

التمهيد

مفهوم إسلامية المعرفة

((لقد تنبه المسلمون منذ بدأ اتصالهم بالغرب الحديث إلى التأخر الذي أصابهم وإلى السبق الحضاري الذي فاز به غيرهم، بعد أن تقلدوا هم زمامه من قبل في فترات تاريخية،سابقة وهناك دلالتان ذواتا مغزى لهذا الاتصال الإسلامي بالغرب في المناقشة الحالية:

الأولى: تتصل بنقد الذات، وتحديد علل التأخر.

والثانية: تتعلق بالأخذ بأسباب التقدم والتمكين)) (١).

ومن هنا ظهر ما يعرف بإسلامية المعرفة وسأبحث هذا الموضوع وكالآتي:

هناك عدة تعريفات لإسلامية المعرفة ومنها الآتي:

١- عرفت إسلامية المعرفة بأنها: ((إعادة صياغة المعرفة على أساس من علاقة الإسلام بها، أي إعادة تحديد وترتيب المعلومات، وإعادة النظر في استنتاجات هذه المعلومات وترابطها وإعادة تقويم النتائج، وإعادة تصور الأهداف، وأن يتم ذلك بطريقة تمكن من إغناء وحدة قضية الإسلام))(٢).

٢- وعرفت بأنها: ((تعني فك الارتباط بين الانجاز العلمي الحضاري البشري والاحالات الفلسفية الوضعية بأشكالها المختلفة واعادة توظيف هذه العلوم ضمن نظام منهجي ديني غير وضعي وهي تعني فيما تعنيه اسلمة العلم التطبيقي والقواعد العلمية ايضا وذلك بفهم التماثل بين العلوم الطبيعية وقوانين الوجود التي ركبت على اساسها القيم الدينية نفسها ولذلك تتم اسلمة الاحالات الفلسفية

---

(١) www. resources eiiit.org//eiiit/eiiit/eiiit_article_read.asp

(٢) ينظر: اسلمة المعرفة المبادئ العامة وخطة العمل، الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي، ترجمة عبدالوارث سعيد، دار البحوث العلمية، د.ط (الكويت /١٩٨٣) ص٣٣ ؛ التأصيل الإسلامي لعلم النفس، عبدالله ناصر الصبيح، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٢٢، السنة ٢٢، ص٤٧٣.

للنظريات العلمية بحيث تنفي عنها البعد الوضعي وتعيد صياغتها ضمن بعدها الكوني الذي يتضمن الغائية الالهية في الوجود والحركة)) [١].

٣-وتعريف إسلامية المعرفة عند المعهد العالمي لفكر الإسلام لا يختلف عما سبق فهي عند المعهد جزء من علمية أكبر هي الأسلمة أو الإسلامية التي هي منهاج للحياة، وإسلامية المعرفة تحديداً عند المعهد هي: ((جانب أساس يختص بالفكر والتصور والمحتوى الإنساني القيمي والفلسفي، وكيفية بنائه وتركيبه وعلاقاته في العقل والنفس والضمير، ومعنى هذا أن مفهوم أسلمة العلوم هو بناؤها على أصول الإسلام الثابتة والتقيد بالأخلاق الإسلامية في البحث)) [٢].

٤-وعرفت إسلامية المعرفة: بأنها إعادة صياغة المعرفة على أساس علاقة الإسلام بها[٣].

٥-وعرفت إسلامية المعرفة: بأنها التمسك بالمنظور القرآني للكون والحياة والأخذ بالإطار الذي وضعه الإسلام لضبط الحركة العلمية[٤].

وهذه المعاني متقاربة، والتعريف الراجح فيما يبدو لي هو التعريف الاول لعموميته وشموله لكل التعاريف الاخرى.

(١) منهجية القرآن وأسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية،محمد أبو القاسم حاج محمد، مكتبة اقرأ، ط٢ (بلا/١٩٩٩م)ص١٥.

(٢) التأصيل الإسلامي لعلم النفس، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، ص٤٧٣.

(٣) ينظر: اسلمة المعرفة المبادئ العامة وخطة العمل، ص٣٣.

(٤) ينظر: http://www.saaid.net/daeyat/

المبحث الاول

مبدأ الاستخلاف وعمارة الأرض(١)

جاء الإسلام ليكّلف الإنسان بإنجاز مهمة في الحياة من أجلها خلق، هي مهمة الخلافة في الأرض كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾البقرة: ٣٠.

فتسمية هذا الإنسان الأول عند الإعلان عن خلقه باسم الخليفة تدل بأن الغاية من خلقه هي القيام بمهمة الخلافة في الأرض، والخلافة في الأرض تعني التعمير فيها تعميرا معنويا بترّقي الإنسان في سلم الإنسانية فردا ومجتمعا، وتعميرا ماديا باستثمار المقدرات الكونية، والانتفاع بها على أسس من العلم بما بنيت عليه من القوانين والسنن، وكل ذلك وفق منهج محدد، هو منهج العبادة الذي جاء به الهدي الديني قرآنا وسنة كما قرره قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦.

وقد تمثّل المسلمون هذه المهمة، وشرعوا توّاً لما استقروا بالمدينة في إنجازها، حتى إذا ما توالت الأجيال، وتراكمت المكتسبات المادية والمعنوية انتهى الأمر إلى إرث عظيم من الإنجاز الخلافي في جميع ميادين الحياة، وهو ذلك الذي سماه ابن خلدون بالعمران، فيما يشبه أن يكون تسمية أخرى لمدلول الخلافة، اقتباسا من قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾هود: ٦١ (٢).

---

(١) للاستزادة والوقوف حول هذا الموضوع (الاستخلاف) ينظر مؤلفات الدكتور عماد الدين خليل التالية: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٩٢– ٢٠٨؛ أولى ملاحم القرن، ص ١١٠ ؛ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، ص ١٩؛ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ١٩– ٢٣.

(٢) ينظر: مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، مؤسسة الفكر الإسلامي (طهران/٢٠١٠م)، العدد (٢٥) ص ١٤٧– ١٤٨. ضمن البحث الموسوم (معالم المنهج الحضاري في الإسلام) د. عبد المجيد النجار.

إذن الاستخلاف لغة النيابة والوكالة[١] ، أما الاستخلاف اصطلاحا: فهو إظهار الإنسان لربوبية الله تعالى وألوهيته في الأرض، بالعبودية والعبادة [٢].

وقد تناول العديد من المفكرين الإسلاميين هذا المفهوم ومنهم الإمام سعيد النُورسي[٣] رحمه الله، حيث تضمنت نظرته إلى مفهوم الاستخلاف ((جملة مرتكزات منها:

١- المرتكز التوحيدي للاستخلاف وذلك بربط الإنسان الخليفة بخالقه وجعله متصلاً بالله(ﷻ).

٢- المرتكز الكوني للاستخلاف وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالكون ودعوته إلى التأمل والسير في الأرض واستعمارها وتسخيرها في تحقيق الأمانة.

٣- المرتكز الحضاري للاستخلاف وذلك بتوجيه الإنسان الخليفة إلى الجمع بين متطلبات الجسد والروح، والواقع والمثال.

٤- المرتكز الأخروي للاستخلاف وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالجزاء الأخروي المضمون في حالة استقامته على الطريقة وحمله للأمانة على

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، (ت: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان الداودي، دار القلم، الدار الشامية (دمشق/بيروت/١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص ٢٩٤ ؛ معجم اللغة العربية المعاصرة، د. احمد مختار عمر(ت:٢٠٠٣م) عالم الكتب (القاهرة/٢٠٠٨م) ٦٨٤/١.

(٢) ينظر: الأبعاد السياسية لمفهوم الاستخلاف، د. صبري محمد خليل، متاح على موقع الدكتور صبري، www.drsabrikhalil.com

(٣) سعيد النورسي المعروف ببديع الزمان، (١٨٧٧- ١٩٦٠م)، فقيه وفيلسوف تركي، واحد ابرز علماء الاصلاح الديني والاجتماعي في العصر الحديث. ولد في قرية نُورْس في جنوب شرقي تركيا الحالية في عهد السلطان (عبدالحميد الثاني) اواخر عمر الدولة العثمانية. من مؤلفاته: (رسائل النور) و(المثنوي العربي النوري) و(الكلمات) و(المكتوبات) و(اللمعات) و(الشعاعات). ينظر: العالم يتصفح كليات رسائل النور، دار سوزلر، ص ٥- ٤٢؛ موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، د. عزيزة فوّال، دار الكتب العلمية (بيروت/٢٠٠٩م) ٢٨١/٤ ؛ www.wikipedia.org.

وجهها الصحيح... فبهذه المداخل التأسيسية الكبرى: العلم والإنسان والاستخلاف يكون الإمام النُورسي قد وضع مشروع النهضة على أرضية صلبة يمكنها أن تؤهل الأمة لأداء رسالتها في العبادة والإعمار والهداية للبشرية)) [١].

إذن مفهوم الإستخلاف يربط الإنسان الخليفة بخالقه المستخلف عن طريق توحيده وعبادته، وبالأرض المستخلف فيها باعتبارها أمانة يجب أن يحافظ عليها وأن يعمل على إعمارها.

((ومصطلح العمارة أو العمران البشريّ، لا يقتصر على فنّ البناء بأنماطه وأشكاله وهندسته، أو إقامة البنيان بشكل عام، وإنما يعني بالمفهوم القرآني أو الإسلامي: القيام بأعباء الإستخلاف الإنساني، وفق منهج الله (ﷻ) في مختلف الأصعدة.. أي أنه يشمل النشاط البشريّ في المجالات المتعددة، المادية والفكرية الثقافية على حد سواء، وهو بهذا المعنى قد يرادف مفهوم أو مدلول الحضارة، الذي يعني عند بعض العلماء: اجتماع عنصرَي الثقافة (الإنتاج الفكري والروحي، أي الارتقاء بخصائص الإنسان)، والمدنية (الإنتاج المادي، الذي يعني الارتقاء والإبداع في وسائل الإنسان)، وإن شئت فقل: اجتماع الثقافة التي تعني عالم الأفكار وما يقع في إطارها، والمدنية التي تعني عالم الأشياء.. وبذلك تكون الحضارة هي العمران بشكل عام، أو النشاط البشري في مجالي الأفكار والأشياء)) [٢].

واستخلاف البشر في الأرض نوعان: استخلاف عام واستخلاف خاص، ويتوسع الأستاذ عبد القادر عودة[٣] في شرح هذين النوعين قائلا:

---

(١) مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة استانبول للثقافة والعلوم (اسطنبول/٢٠١٠م) العدد (٢) ص ١١٩-١٢٠. ضمن البحث الموسوم (موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي)، د. عبدالعزيز برغوث.

(٢) الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، ص ١٥٢.

(٣) عبدالقادر عودة ، (١٩٠٣- ١٩٥٤م)، قاضي وقانوني وفقيه دستوري، ولد بقرية كفر الحاج شربيني في محافظة الدقهلية في مصر، تخرج من كلية الحقوق بالقاهرة سنة (١٩٣٠م)=

((فالاستخلاف العام: هو استخلاف البشر في الأرض باعتبارهم مستعمرين فيها ومسلطين عليها ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ هود: ٦١ ، وقد بدأ هذا الإستخلاف بآدم (عليه السلام) ومن بعده كل ذريته فهم جميعا مستعمرون في الأرض، إستعمرهم الله جل شأنه فيها، وسخرها لهم وسلطهم عليها بإذنه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة:٣٠.

والاستخلاف الخاص: هو الاستخلاف في الحكم، وهو نوعان: إستخلاف الدول واستخلاف الأفراد، والاستخلاف في الحكم بنوعيه منّة أخرى يمنّ الله بها على من يشاء من عباده أُمما وأفرادا بعد أن منّ عليهم جميعا بنعمة الاستخلاف في الأرض ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة: ٢٤، واستخلاف الدول معناه تحرير الأمة واستقلالها بحكم نفسها وجعلها دولة لها من السلطان ما يحمي مصالح الأمة ويعلي كلمتها، ومعناه الثاني إتساع سلطة الدولة حتى يشمل فوق أبناء الأمة أمما وشعوبا أخرى... إلا أن للاستخلاف مسبباته التي تباشرها الأمم والشعوب فتؤهلها للاستخلاف... ولقد وعد الله جل شأنه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض، وإنما وُعد المؤمنون بالاستخلاف إذا عملوا الصالحات، والمقصود بالصالحات كل ما يصلح شأنهم في الدنيا من الإعداد والاستعداد والتفوق، وما يصلح شأنهم في الآخرة من الطاعة واجتناب المعاصي. ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ

=انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين بمصر، واختير عضوا في مكتب الإرشاد لهذه الجماعة، تم إعدامه بعد اتهام جماعة الإخوان المسلمين كذباً بمحاولة اغتيال (جمال عبدالناصر). من ابرز مؤلفاته: (الإسلام وأوضاعنا السياسية) و(الإسلام وأوضاعنا القانونية) و(التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي) و(الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه). ينظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (ت:١٩٨٧م) مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي (بيروت/١٩٥٧م) ٢٩٦/٥؛ موسوعة شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث، د. توفيق الواعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية (القاهرة/٢٠٠٦م) ٦١/١- ٧٠؛ www.wikipedia.org.

مِن قَبْلِهِمْ ﴾ النور: ٥٥، واستخلاف الأفراد هو الاستخلاف في الرئاسة وقد يسمى المستخلف خليفة كما سمي داود (عليه السلام) ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ص: ٢٦ [١].

وبما أن الإنسان مستخلف في الأرض فيجب أن يعمل وفق نهج وتوجيه من أستخلفه وهو الباري (عز وجل)، لذا فرئيس القوم خليفة فيهم يحكم بالحق لا بهواه ، وبالتالي فإن الخليفة يتعامل مع المال العام كوكيل مؤتمن عليه لا يصرفه إلا فيما يرضي الله من غير تبذير ولا تقتير، أما الملك فيتعامل مع المال العام كمال خاص يصرفه حسب هواه وكثيرا ما تهدر أموال الأمة لإشباع نزوات حكام أقاموا أنفسهم مقام الملوك... لذا كان هناك فرق واضح بين الخليفة والملك عند المسلمين قديما، فلقد ذكر ابن سعد[٢] في الطبقات أن عمر بن الخطاب(رضي الله عنه)[٣] قال

(١) ينظر: الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة (بيروت/١٩٨١م) ص١٨-١٩.

(٢) محمد ابن سعد ابن منيع الزهري الهاشمي مولاهم البصري، (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) نزيل بغداد كاتب الواقدي صدوق فاضل من العاشرة مات سنة ثلاثين وهو ابن اثنتين وستين، ينظر: تقريب التهذيب، أبو الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد (حلب/١٩٨٦م) برقم (٥٩٠٣) ص٤٨٠، ؛ الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي (ت:١٩٧٦م) دار العلم للملايين، ط١٥ (بيروت/٢٠٠٢م) ١٣٦/٦.

(٣) الصحابي الجليل عمر بن الخطّاب بن نفيل القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين ابن عبد العزّى بن رياح، أبو حفص أمير المؤمنين (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ)، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان إليه السفارة في الجاهلية، وكان عند المبعث شديدا على المسلمين، ثم أسلم، فكان إسلامه فتحا على المسلمين، وفرجا لهم من الضيق. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت:٨٥٢هـ) تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية (بيروت/١٤١٥ه/١٩٩٤م) ٤٨٤/٤؛ الأعلام، ٤٥/٥.

لسلمان[١]: ((أملكٌ أنا أم خليفة؟ فقال لهُ سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهمًا أو أقل أو أكثر، ثم وضعتهُ في غير حقهِ فأنت ملك غيرُ خليفة، فاستعبر عُمر))[٢].

وبعد أن اطّلعنا على مرتكزات الاستخلاف وأنواعه، يتناول الدكتور عماد الدين خليل مفهوم الاستخلاف من حيث غايته المتمثلة في إعمار الأرض فيقول: ((إن الإنسان مستخلف في العالم بُعث لتطويره وإعماره وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته من أجل تسوية أرضيته كي تكون أكثر ملاءمة لحياة مطمئنة تعلوا على الضرورات بعد أن تتحرر منها، وتكون أكثر قدرة على التوجه إلى الأعلى، إلى خالقها جل وعلا)) [٣].

ويُعدّ البحث العلمي وسيلة الإعمار، فللإستخلاف في الأرض مهام لا يمكن تحقيقها ((دون اعتماد طرائق البحث العلمي ومناهجه للكشف عن سنن العالم والطبيعة ونواميس الكون، من أجل الإفادة من طاقاته المذخورة، وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان وبين محيطه))[٤].

ومسألة الاستخلاف التي تناولَتها خلال آيات القرآن الكريم التي، تبدو على حد تعبير الدكتور عماد الدين خليل كخيط طويل عادل من طرفيه: ((العمل والإبداع

(١) الصحابي الجليل سلمان أبو عبد الله الفارسي، ويقال له سلمان ابن الإسلام وسلمان الخير، أصله من رامهرمز، وقيل من اصبهان، شهد الخندق وبقية المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، توفي سنة (٣٦هـ). ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري (ت:٦٣٠هـ) تحقيق: علي عوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية (بيروت/١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ٥١٠/٢؛ الإصابة في تمييز الصحابة، ١١٨/٣- ١١٩.

(٢) الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، (ت:٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت/١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ٢٣٣/٣.

(٣) مدخل إلى إسلامية المعرفة، ص ٢٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٦.

ومجانبة الإفساد في الأرض من جهة، وتلقي القيم والتعاليم والشرائع عن الله سبحانه والالتزام الجاد بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم من جهة أخرى.

والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة بحيث أن افتقاد أيّ منهما سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة)) [١].

ويبلغ تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعا، وهي كلها تشير – سلبا وإيجابا – إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان – فردا وجماعة – على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياسا عادلا لتحديد المصير في الدنيا والاخرة، وهو موقف ينسجم تماما مع فكرتي الاستخلاف و الاستعمار في الأرض[٢]. وللحفاظ على مكتسبات الإعمار في الأرض يجب تحديد مواطن الخلل لإصلاحها وسبل الإفساد لمكافحتها، ((وهذه الحماية الحضارية لا تنصب على الجوانب المادية المدنية من الانجاز البشري فقط، بل تتجه إلى ما هو أكثر أهمية، وما يعد أساسا للإنجاز المادي نفسه، تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية والثقافية، بمفهومها الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لأعمار العالم، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله تعالى إلى بني آدم... إن الإصلاح والإعمار المنوطَين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفعاليات الحضارية، مادية وأخلاقية وروحية، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس بشكل أو بآخر – على الجوانب الأخرى، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿ وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٢)) [٣].

(١) مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، المركز الثقافي العربي، ط١ (بيروت/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص ٣٨.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص ٤١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٣.

لذا يتوجب على الأمة أن لاتقف مكتوفة الأيدي أمام المفسدين تتجنبهم فحسب، بل من تمام مهام استخلافها أن تحمي منجزاتها في الإعمار بمحاربة الفساد ((لئلا يتحول إلى فتنة عمياء لا ترحم أحدا ولا تبقي، وهي تدوم فوق رؤوس الجماعة كلها ظالمهم أو مظلومهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنفال: ٢٥)) [١].

لقد جاء الإسلام بمبادئه السمحة ومعاييره الواضحة المفصلة في كتب التفسير والحديث و الفقه، ليوجه النشاط الإنساني باتجاه عمارة الأرض والسمو بإنسانية الإنسان من خلال تحقيق عبودية العباد لرب واحد أحد فرد صمد... إلا أن المشكلة التي يواجهها عالمنا الإسلامي اليوم تتمثل في ((وجود متخصصين لا فقه لهم، وفقهاء بالأحكام الشرعية لا تخصص لهم في شعب المعرفة المتعددة.. بينما لو نظرنا في تاريخنا الثقافي، لوجدنا أن التكامل كان موفورا، فالكثير من العلماء في شعب المعرفة المختلفة كانوا فقهاء ومحدثين ومفسرين)) [٢].

المبحث الثاني
مبدأ التسخير[٣]

إن الله سبحانه قد خلق الأرض مسخرة للبشر، وقدر فيها أقواتها، رحمة بهم، وهداية لهم إلى سبل الرشاد، ثم دلهم بها على قدرته وربوبيته ورحمانيته وآلائه، كي يقوموا بما خلقوا له: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦.

(١) مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص ٤٤.

(٢) الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، ص ١٦٠.

(٣) للاستزادة والوقوف حول هذا الموضوع (التسخير) ينظر مؤلفات الدكتور عماد الدين خليل التالية: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٩٢– ٢٠٨؛ أولى ملاحم القرن، ص ١١٠؛ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، ص ١٩؛ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٢٧– ٣٤.

وآلاء الله الدالة عليه كثيرة لا تحصى، إلا أن في مقدمتها خلق الأرض وتقدير أقواتها ومستقراتها ومهادها وتسخيرها؛ بهذا يمن الله تعالى على الإنسان ويدعوه إلى التأمل والتدبر والمعرفة والعبادة والشكر: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ فصلت: ٩- ١٠ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٠، فالله الذي خلق، والله الذي رزق، هو الذي يستحق العبادة وهو الذي يحق له أن يبصرنا بفضله علينا، وفي مقدمة هذا الفضل تسخير الأرض وجعلها لنا بساطا ومهدا ومستقرا ومصدرا للرزق الكريم: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ طه: ٥٣ - ٥٤ (١).

إذن نلاحظ أن من كمال الحكمة الإلهية المطلقة، أنه هيأ للإنسان المحيط الملائم لحياته، مسخرا كل ما حوله من شمس وقمر ونجوم وارض خلق فيها مياها ومعادناً ونباتات وحيوانات، ليستثمرها الإنسان في أداء مهمة استخلافه في الأرض، المتمثلة في إعمارها.

((فالله تعالى أودع في الإنسان استعدادات وقدرات للتمييز بين الخير والشر وبين الهدى والضلال، ومن الآيات الدالة على فطرية الحرية الإنسانية التي هي من ركائز التسخير قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ البلد: ٨ – ١٠ ، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف: ٢٩)) (٢).

(١) ينظر: ملكية الأرض في الإسلام بين الشرع والوضع والتطبيق، الشيخ عبد الكريم مطيع الحمداوي، متاح على موقع الحركة الإسلامية المغربية، www.elharakah.com

(٢) المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن وانعكاساتها الأخلاقية، د. هشام بني خلف، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، (بلا) ص ١٢.

فالحياة الدنيا إذن هي محل الاختبار والتخيير للإنسان بين طريقي الخير والشر ومن ثم وعد الله المؤمنين المصلحين بالجنة وتوعد المفسدين بنار جهنم.

وبما أن التسخير يحتاج إلى قانون يعمل المسخر به بحيث ليس له أن يخالفه أو يعترض عليه، وهذا ما نراه في كل مخلوقات الله في الكون من كواكب ونجوم ونباتات وحيوانات وحتى جسم الإنسان نفسه حيث تعمل جميع أعضائه مثل: القلب والرئتين والكلى والمعدة والدورة الدموية وغيرها. دون أي تدخل منه، فكلها تسير وفق سنن وضعها الله، ليس لها أن تخرج عنها وإلا حلت الفوضى والخراب في العالم بكامله. وبالتالي بما أن الكون بكل مكوناته مسير بقانون إلهي منقاد إليه لا يخرقه ولا يعترض عليه، فنستطيع أن نقول إنه كون يدين بالإسلام، وهذا ما أشار إليه الأستاذ أبو الأعلى المودودي[١] وبرهن عليه بقوله:

((فهذا القانون الشامل، الذي يستسلم له ولا ينفك عن طاعته شيء في هذا الكون، من أكبر سيارة في السماء، إلى أصغر ذرة من الرمل في الأرض، هو من وضع ملك جليل مقتدر. فإذا كان كل شيء في السماوات وما بينهما منقادًا لهذا القانون، فإن العالم كله مطيع لذلك الملك المقتدر الذي وضعه، ومتبع لأمره. ويتبين من هذه الوجهة، أن الإسلام دين الكون طراً، لأن الإسلام معناه الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض كما عرفت آنفا. فالشمس والقمر والأرض مسلمة، والهواء والماء والنور والظلام والحرارة مسلمة، والشجر والحجر والأنعام مسلمة، بل إن الإنسان الذي لا يعرف ربه ويجحد وجوده وينكر آياته، أو يعبد غيره، ويشرك به سواه، هو مسلم من حيث فطرته التي فطر عليها. وذلك أنه لا يولد ولا

(١) ابو الاعلى المودودي (١٩٠٣- ١٩٧٩)، كاتب ومفكر إسلامي، ولد في مدينة اورنج آباد جنوبي الهند، وانتخب عام ١٩٤١ م أول رئيس للجماعة الإسلامية، وقد حوكم وسجن، من مؤلفاته: (مبادئ الإسلام) و(الجهاد في الإسلام) و (الحضارة الإسلامية- اصولها ومبادئها) و (نظرية الإسلام السياسية) و(الدين الحق) و(الإسلام والجاهلية). ينظر: تكملة معجم المؤلفين، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم (بيروت/١٩٩٧م) ١/٨٣-٨٥ ؛ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف، ط٤ (الرياض/١٩٩٢م) ٢/٥-٣٠ ؛ شخصيات لها تاريخ، د. محمد عمارة، دار السلام، (القاهرة/٢٠٠٨م) ص٢٣٧-٢٣٨.

يحيا ولا يموت، إلا وفقا لما وضع الله تعالى من قانون لولادته وحياته وموته. وكذلك كل أعضاء جسده، لا تدين إلا بدين الإسلام، لأنها لا تنشأ ولا تكبر ولا تتحرك إلا حسب هذا القانون الإلهي نفسه، بل الحق أن لسانه الذي يستخدمه في إبداء آراء الشرك والكفر جهلاً وسفهاً، لا يدين – في نفسه – إلا بدين الإسلام))[١].

ويقدم الدكتور عماد الدين خليل تعريفا وافيا لمبدأ التسخير على أنه: ((ملمح أساسي من ملامح الرؤية الإسلامية للكون والعالم والحياة والإنسان، يحتم ولا ريب اعتماد العلم لتحويله إلى ارض الواقع والتحقق بعطائه الكريم... إن العالم والطبيعة، وفقا للنظرة الإسلامية، قد سخرا للإنسان تسخيرا، وان الله سبحانه وتعالى قد حدد أبعادهما وقوانينهما ونظمهما واحجامهما بما يتلائم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا ايجابياً فاعلاً)) [٢].

إن العلاقة بين الإنسان والكون هي علاقة سيادة، فالكون مسخر له بإذن الله تعالى، وهي ليست علاقة خضوع وعداء.. ويوضح لنا الدكتور عماد الدين خليل أن صيغة علاقة الإنسان بالعالم من خلال معطيات القرآن الكريم هي: ((صيغة السيد الفاعل المريد الذي سخرت وأخضعت له مسبقا كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض واعماره للعالم على عين الله))[٣].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ النحل: ١٢. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ النحل: ١٤.

(١) مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، (دمشق/٢٠٠٥م) ص١١– ١٢.

(٢) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١.

إن المفهوم الإسلامي للعلاقة بين الإنسان والطبيعة تقوم على التناغم والتوائم لا على التعادي والتصادم والتصارع، ويلخص الدكتور عماد الدين خليل الفرق بين موقف الإسلام والغرب من هذه العلاقة قائلا:

((إن الغربيين يدّعون أنهم يرفضون الانحناء للطبيعة ويتمردون عليها ويعدّون العدّة لغزوها والإجهاز عليها.. نقرأ هذا في صحفهم ومجلاتهم، كما نقرأه في كتبهم وأبحاثهم.. نستمع إليه في إذاعاتهم ونشهده على شاشات تلفازاتهم والموقف أوضح من أن يوثق بنص أو شهادة.

إن الطبيعة في المنظور الإسلامي ليست قوة فوقية قاهرة لا حيلة للإنسان إزاءها إلا أن يتعبدها ويسجد لحيثياتها.. ولا هي خصم عنيد يتوجب غزوه وإذلاله.. فبعيدا عن غثاء التطرف وضبابه وزبده وتشنجه.. يمكن ان تبرز الطبيعة بصيغة تختلف تماما.. لا هي بالقوة القهرية ولا بالخصم اللدود.. إنها – باختصار – الأرضية التي سخرت للإنسان من اجل ان يتحرك الإنسان ويبني ويعمر وينشئ ويطور وهو يتقدم صوب عالم سعيد تتحقق فيه أقصى درجات الفهم والتعاطف والتناغم والوفاق بين الإنسان والطبيعة... إنها علاقة الألفة والصداقة والمحبة والتفاهم والوئام وليست علاقة القسر والإرهاب والتحكم والبغضاء والغزو والتنافس والصراع... ولقد أرادها الإسلام علاقة من هذا النوع: الالفة والمحبة والود والتفاهم كيلا ننفر من الطبيعة أو تنفر منا وكي تتحقق اقصى درجات التكشف والعطاء... إن التسخير هو البديل الذي يطرحه القرآن الكريم بصدد الموقف من الطبيعة بدلا من التعبد أو الغزو الذي تطرحه المواقف الأخرى..)) [١].

وقفة مع التسخير:

إن من أهم مرتكزات التسخير وقواعده الأساسية هي أن السنن الكونية والطبيعة لاتحابي أحداً ولا تجامل، والانسان مكلف باكتشاف القوانين الطبيعية المهيأة للتسخير فان لم يعمل على كشفها سحقته وأبعدته عن المشهد الكوني والصدارة في قيادة العالم، ولذلك نرى كيف أن الغرب ادرك هذه القضية وكيف أنه

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٤٥-٤٧.

أدرك أن تسخير قوى الطبيعة ميدان واسع لتسجيل السبق والغلبة في فلسفة الصراع العالمي لأثبات الوجود الحقيقي على الارض، فكان الغرب أقرب الى سنة التسخير من المسلمين؛ وهذه إحدى أسباب تقدم الغرب وتأخر المسلمين.

المبحث الثالث

مبدأ التوازن(١)

إن الإسلام نظام ودستور للبشرية جمعاء، فهو دين كلي شامل لكل مناحي الحياة المختلفة، والتربية المنبثقة من هذا الدين، ليست نظاما تاريخيا لفترة من فترات التاريخ، وليست نظاما محليا لمجموعة من الناس في بيئة معينة، أو في عصر معين، إنما هي المنهج الذي ارتضاه الله لحياة البشر المتجددة –والممتدة إلى ما يشاء الله سبحانه–، لصياغة شخصية الإنسان شخصية متزنة متكاملة لتحقيق مسلك أخلاقي قويم في المجتمع الإنساني، إنها التربية التي أرادها الله لآدم (عليه السلام) أن ينشأ عليها هو وذريته، ونمت بذورها برسالة سيدنا نوح (عليه السلام)، واكتملت برسالة سيدنا محمد (ﷺ) (٢).

وللإنسان طبيعة إنسانية فطره الله عليها؛ تدل على ماهيته، ((وتتضح تلك الماهية بالنظر في آيات القرآن الكريم؛ حيث نجد تصويرا، للطبيعة الإنسانية من منظور يقوم على أساس التكامل بين كل جوانب تلك الطبيعة من مادية وغير مادية؛ فهي تتكون من عنصرين:

أحدهما مادي، والآخر غير مادي، ويتضح الجانب المادي من خلال الآيات التي يتكلم فيها الحق –تبارك وتعالى– عن المادة التي خلق منها الإنسان، كالأرض أو التراب أو الطين أو الصلصال، وأما الجانب اللامادي فهو ما يطلق عليه اسم الروح،

(١) للاستزادة والوقوف حول هذا الموضوع (التوازن) ينظر مؤلفات الدكتور عماد الدين خليل التالية: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص٢١٧– ٢١٩، ص ٢٩٤– ٣٠٤؛ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١١٢– ١١٤؛ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص٢٣–٢٧.

(٢) ينظر: المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن وانعكاساتها الأخلاقية، ص ٢.

وقد تطلق عليه اسم النفس والمهم أن الإنسان في نظر الإسلام مادة وروح معا)) [١].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٨ – ٢٩.

وتقوم التربية الإلهية للإنسان على مبدأ أساسي من مبادئ الحياة الإسلامية: ألا وهو مبدأ التوازن والذي يعرّفه الدكتور عماد الدين خليل على أنه: ((التوازن بين الحاجات الروحية والمادية)) [٢].

والإسلام في هذا المبدأ راعى التكوين الإنساني من المادة ومتطلباتها والروح وحاجاتها، فلم يقدم إحداها على الأخرى أو يشيد بإحداها ويزدري الأخرى، بحيث تطغى المادة على الروح أو العكس، بل وازن بينهما بميزان دقيق هو الشرع الإسلامي العظيم، الذي يزن الأفعال والأقوال على حد سواء، ليحصل التكامل والتناغم بين ما هو مادي وروحي في الذات، بانياً للإنسان شخصية سوية متزنة مهيئة لإعمار الأرض. ذلك هو الإعداد الإلهي لتكريم الإنسان بمهمة الخلافة في الأرض.

ويشير الدكتور عدنان علي رضا النحوي[٣] إلى أن التوازن ليس في فطرة الإنسان وحده. ولكن التوازن قائم في خلق الله كله، قائم في الكون كله: في السموات

---

(١) المرجع السابق، ص٣.

(٢) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٣٤.

(٣) عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي، كاتب وأديب إسلامي، ولد في مدينة صفد في فلسطين سنة (١٩٢٨م)، ويحمل الان الجنسية السعودية، نزح عن فلسطين سنة (١٩٣٧م) إلى دمشق، ساهم منذ طفولته بالتصدي للانجليز واليهود، نال الماجستير والدكتوراه من امريكا تخصص الهندسة الكهربائية، عمل مدرسا لمدة ثماني سنوات في سوريا والكويت، ومديرا للمشاريع الاذاعية في وزارة الاعلام في المملكة العربية السعودية لمدة خمسة عشر يوما، عمل عضوا بدرجة زميل في معهد المهندسين في لندن، وعضوا مؤسسا لرابطة الادب الإسلامي العالمية، وعضوا لاتحاد الناشرين العرب، من ابرز مؤلفاته: (ديوان الأرض المباركة) و(النقد الادبي المعاصر بين الهدم والبناء) و(الحداثة في منظور إيماني) و(الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته). المصدر: الموقع الرسمي للدكتور النحوي. www.alnahwi.com

والأرض، في النجوم والشمس والقمر، في الجبال والوديان، في اليابسة والبحار، في الرياح والأمطار، في الثروات الموزعة في الأرض. إنه يكشف لنا دقّة التوازن وعدالته في حكمة ربانية بالغة، وإعجاز رباني بالغ.

لقد خلق الله الكون كله سماواته وأرضه على موازنة ربانية وحكمة بالغة، لتكون مسخّرة للإنسان وحياته وهدايته: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ لقمان: ٢٠ ، يمضي القرآن الكريم يعرض لنا صوراً متعددة من آيات الله البينات في هذا التوازن في خلقه كله. وتمضي جهود الإنسان تضرب في آفاق الحياة لتكتشف آية بعد آية، وسنّة بعد سنّة، وتوازناً يمسكه توازن. وجولة قرآنية أخرى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ الرحمن: ١ – ١٠، الشمس والقمر بحسبان توازن محسوب وتقدير معلوم إنه تقدير رباني ونقلة واسعة: والسماء رفعها ولكنه رفع على تقدير وحساب: ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان.. هذا التوازن الذي جعله الله من سننه ومشيئته في الكون كله، كيف يخرج عنه الإنسان بسلوكه وعمله..؟ فكان أمر الله إليه: ألا تطغوا في الميزان.

وآيات بيّنات كثيرة تكشف لنا دقّة السنن الربانيّة وثباتها وعدالتها وموازنتها على حكمة ربانية بالغة، ولولا ثباتها لما عرفها الإنسان، ولا استقامت له حياة، ولا يستطيع الإنسان أن يقيم موازنة له في حياته إلا إذا عرف السنن الربانيّة واستجاب لها دون أن يُصادمَها [١].

(١) ينظر: حكمة التوازن في خلق الكون وفي سنن الله الثابتة، د. عدنان علي النحوي، متاح على الموقع الرسمي للدكتور النحوي، www.alnahwi.com.

إن مسألة التوازن عميقة في نسيج القرآن بحيث أننا نراها تأخذ أكثر من اتجاه، وتتلبس بأكثر من شكل.. إن إحدى الآيات تتحدث عن الزينة آمرة بني آدم أن يمارسوها، وأين؟ عند كل مسجد حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ الأعراف: ٣١، تعقب ذلك دعوة صريحة أيضاً إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حد الإسراف ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ الأعراف: ٣١.

ثم ما تلبث التي تليها ان تتساءل بصيغة استنكارية واضحة ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾ الأعراف: ٣٢ ، إن المحرّم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة، أيًا كان مصدرها، الجسد ام الروح، وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار ابتداء إلى الجسد بما انه جسد، والى غرائزه وحاجاته بما انها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح!! اننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك - وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح – نقرأ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ ﴾ الأعراف: ٣٣ [١].. ويعدّ الدكتور عماد الدين خليل: ((أن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الإنساني في الأرض، والشرك بالله هو أخطر تزوير))[٢].

وهو يربط بين كبت الغرائز والعقوبة الإلهية، فيقول: ((إننا نجد في الآية التي تقول: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾ النساء: ١٦٠، إن كبت بعض جوانب الغريزة، أو الحد من إشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة عقاب وليس – كما قد يتصور البعض – قاعدة من قواعد الدين. على العكس، إن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من

(١) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦.

القرآن الكريم، ان الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعاً: طعاما وشرابا وجنسا وان التحريم مسألة استثنائية محدودة المساحة، ضيقتها، حتى إن القرآن ليُعدّ توسيعها بشكل اعتباطي كفرا وافتراءً على الله ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ١٤٠، ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ النحل: ١١٦، ويحذر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله وهو أدرى به: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ المائدة: ٨٧. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ التحريم: ١ ويبين لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية، أن يجيئوا دائماً لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها ويقفوا بمواجهة التزوير)) [١] الذي قد يحصل من الإنسان في خضمّ تجارب الابتلاء التي هي من ((سنن الله في هذه الحياة الدنيا تبتلي الإنسان وتمحّصه حتى يُجلى أمره وتقوم الحجة له أو عليه، ومن خلال هذا الابتلاء من الله يُخيّل لبعض الناس أن هناك عقبات تصدُّهم عن الوفاء بالعهد والأمانة، والعبادة والخلافة، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان، أو الموازنة في أمور حياتهم، كلاّ ! إنها ليست عقبات تصدُّ عن الوفاء بالعهد ولكنها ابتلاء وتمحيص ليرى الله من يعدل بالموازنة.

من أجل ذلك تصبح مسؤولية الإنسان بعامّة والمؤمن بخاصة أن يقيم الموازنة الأمينة في حياته بين مختلف التكاليف الربانيّة التي تمثل حقيقة العهد مع الله، وحقيقة العبادة والأمانة، والخلافة والعمارة، من خلال سنّة الابتلاء..

فتصبح الموازنة الأمينة أساساً في حياة المؤمن وفي ممارسته الإيمانيّة، وفي ممارسة منهاج الله في الواقع البشري، عن إيمان صادق وتوحيد صاف وعلم صادق بمنهاج الله يَرُدّ إليه الواقع لِيُفْهمَ من خلاله)) [٢].

ويوضح لنا الدكتور عماد الدين خليل حقيقة التناقض الذي قد يقع في فكر بعض المسلمين أو المشككين في الإسلام من الغربيين، قائلا: ((انه لمن التناقض الفاضح، المرفوض في الإسلام قطعا، أن يركّب الإنسان – من قبل الله – تركيبا معينا، وان

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٣٦-٣٧.

(٢) حكمة التوازن في خلق الكون وفي سنن الله الثابتة، www.alnahwi.com

تسخر الأرض – بإرادة الله– لتلبية متطلبات هذا التركيب، ثم تجيء الأديان – من عند الله أيضا – لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة، بين مطالب التركيب الآدمي، وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة..)) [١].

ويؤكد لنا الدكتور عماد الدين خليل ((انه لا حياة إسلامية بمعنى الكلمة إن لم يتحقق ذلك التوازن العادل بين طرفي التكوين الإنساني، بل في نسيج التكوين الإنساني، بشكل أدقّ، ومادام قد أريد للتجربة الإسلامية أن تتحرك على ارض الواقع وتصوغ إنسانا متوازنا قديرا على الفعل والتغيير والحركة، غير متأزم أو جانح أو مكبوت.. فانه لابد من طرائق العلم وحقائقه وتطبيقاته لتنفيذ هذه الرؤية التعادلية التي لا نجدها في أي مذهب أو عقيدة أخرى في العالم بهذا القدر من التخطيط والشمولية والالتزام..!!)) [٢].

المبحث الرابع

مبدأ الارتباط المحتوم بين الخلق والخالق

إن علاقة المخلوق بخالقه هي العبودية له وحده، والتحرر من عبادة غيره، ولا يتم ذلك إلا بتطبيق الإسلام الذي يعني طاعة لله تعالى، والانقياد لأحكامه وأوامره.. وينبه الأستاذ أبو الأعلى المودودي إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يطيع الله، ويتبع قانونه، ويسلك سبيله إلا إذا علم عدة أمور، وبلغ علمه بها مبلغ اليقين.

وإن أول ما يجب على الإنسان بهذا الصدد أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى، فإنه إذا لم يكن موقناً بوجوده، فكيف يطيعه ويتبع قانونه؟.

وكذلك يجب عليه أن يعرف صفات الله تعالى، فإنه إذا لم يعرف أن الله واحد لا شريك له في ألوهيته، فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومد يده أمام غير الله؟ وكذلك إذا لم يكن موقناً بأن الله سميع عليم بصير بكل شيء، فكيف يمسك نفسه عن معصيته والخروج على أمره؟ فيتضح من كل ذلك، أن الإنسان لا يمكنه أن يتحلى

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨-٣٩.

بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بها، في أفكاره، وأعماله، وأخلاقه، لسلوك صراط الله المستقيم، ما دام لا يعرف صفات الله تعالى، ولا يحيط بها علماً صحيحاً كاملاً.

ولا يكفي أن يكون هذا العلم علماً فحسب، بل ينبغي أن يكون متمكناً من أعماق قلبه، ليأمن قلبه من الظنون الخاطئة، وحياته من العمل بما يخالف عمله [١].

ويعرّف المودودي الإيمان بالله قائلا: ((العلم والمعرفة واليقين هو الإيمان وذلك هو معنى كلمة الإيمان بعينه، فكل من عرف توحيد الله، وصفاته الحقيقية، وقانونه، ومجازاته لعباده على أعمالهم يوم القيامة، ثم كان موقناً بكل ذلك من قرارة نفسه، هو المؤمن، ومن نتائج الإيمان أن يكون الإنسان مسلماً، أي مطيعاً لله ومتبعاً لقانونه)) [٢].

وأصل معنى التوحيد: اعتقاد أن الله واحد لا شريك له.. وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد، وهذا الطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي (ﷺ) كما تشهد به آيات الكتاب العزيز [٣].

والدين الإسلامي حرر الفكر الإنساني من خرافات الجهل والشرائع الأرضية الباطلة فهو الدين الوحيد الذي ((خاطب العقل، وأستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادّعاه ودعا إليه)) [٤].

وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمد عبده [٥]: ((تآخى العقل لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.

---

(١) ينظر: مبادئ الإسلام، ص ٢٩.

(٢) مبادئ الإسلام، ص ٣٢.

(٣) ينظر: رسالة التوحيد، الإمام محمد عبده، دار النصر (القاهرة/١٩٦٩م) ص ٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٩.

(٥) محمد عبده بن حسن خير الله، (١٨٤٩ – ١٩٠٥م)، مصلح ديني مصري، ومن كبار الدعاة إلى التجديد في العالم الإسلامي، من أشهر آثاره: (رسالة التوحيد) و(شرح نهج البلاغة)=

وتقرر بين المسلمين كافة – إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه – أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل))[١].

إذاً الدين الإسلامي قائم على التوحيد وإعمال العقل فيما خلق الله، فيتوجه الإنسان إلى خالقه مقدسا إياه متبعا أوامره ومجتنباً نواهيه كما أمرنا القرآن وعلمنا نبي الله محمد (ﷺ)، وعليه فإن ((الدين الإسلامي... لا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي متسلط أو صاحب قداسة مطاع، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضي بالحرمان أو بالنجاة، فليس في هذا الدين إذاً من أمرٍ يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان، ولن يتجه الخطاب إذاً إلا إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المتحكمين فيها بأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى.. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ١١٥.

لا هياكل في الإسلام ولا كهان حيث لا هياكل.. فكل أرض مسجد وكل من في المسجد واقف بين يدي الله..)) [٢].

فإذا لا يوجد واسطة بين العبد وربه في الإسلام وهذا يعني أن الخطاب الإسلامي لن يتجه إلى غير الإنسان العاقل حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم.

=و(تفسير القران الكريم) لم يتمه، (الرد على هانوتو). ينظر: الأعلام، ٦/٢٥٢- ٢٥٣ ؛ موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر، د. أيوب عيسى أبو دية، مطابع السفير (عمان/٢٠٠٨م) ص ٦١٧ ؛ شخصيات لها تاريخ، ص ١٨٨.

(١) رسالة التوحيد، ص ٩ – ١٠.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، شركة نهضة مصر للطباعة، ط٦ (القاهرة/٢٠٠٧م) ص ١٢.

كذلك يكون الخطاب في الدين الذي يلزم كل إنسان طائره في عنقه ويحاسبه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فاطر: ١٨. ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ الطور: ٢١، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ النجم: ٣٩ – ٤٠.

فإذا كان في الدنيا دين يجتبي القبيلة بنسبها أو يجتبي المرء قبل مولده لأنه مولود فيها، أو كان في الدنيا دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله، فليس في الإسلام إنسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد، ولكنه الدين الذي يوكل فيه النجاة والهلاك بسعي الإنسان وعمله، ويتولى فيه الإنسان هدايته بفهمه وعقله، ولا يبطل فيه عمل العقل ان الله بكل شيء محيط، فإن خلق العقل للإنسان لا يسلبه القدرة على التفكير ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير[١].

وهكذا ((فإذا ذكرت ألوهية الله (ﷻ) للكون، ذكرت معها عبودية الإنسان لله.. والعبودية تعني منتهى الذل الصادر عن منتهى الضعف والعجز)) [٢].

ولقد أدرك الكثير من العلماء في العالم، إنطلاقاً من مبدأ السببية الذي ينصّ على أن لكل آلة صانع، ولكل مخلوق خالق، ولكل نتيجة سبب، أن النظام الدقيق الذي يسير عليه كل ما في الكون، يجب أن يكون مرجعه وأساسه إله خالق حكيم مدبر قوي قاهر أزلي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

ويبين الدكتور عماد الدين خليل أهمية العلم في معرفة الخالق، فهو يشير إلى ((ضرورة اعتماد العلم للتحقق من واحد من أهم المبادئ في المنظور الإسلامي والديني عموما.. وهو الارتباط المحتوم بين نظام الخلق المعجز ووجود الخالق سبحانه.. إن العلم هو الأداة التي تكشف عن هذا الارتباط، وتضيئه، وتزيده إيضاحا.. ولقد كتب الكثيرون عن معجزة الخلق، وقطع حشود من العلماء أعمارهم بحثا وتنقيبا لكن ما يلبثوا ان ينتهوا إلى إحدى المسلمات الكبرى في تأريخ العلم: انه

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ١٣.

(٢) حرية الإنسان في ظل عبوديته لله، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر (بيروت/١٩٩٢م) ص١١.

لابد للخلق من خالق.. مسألة محتومة لا تقبل لجاجة ولا إنكارا.. إن الخلق مادام على هذه الدرجة من النظام والضبط والدقة والتوافق والحركة المرسومة والهدف المقصود والارتباطات الهادفة.. فانه لابد أن يكون صدورا عن إرادة فوقية قادرة مدبرة.. إنها مسألة محسومة برياضيات العلم ومعادلاته.. والشواهد كثيرة، والنتائج التي يتمخض عنها السعي العلمي الجاد لا تعدّ ولا تحصى...

ويكفي أن يرجع القارئ إلى أبحاث من مثل (الله يتجلى في عصر العلم) لحشد من العلماء و(العلم يدعو للإيمان) لكريسي موريسون، و(القرآن والعلم الحديث) و(الله والعلم الحديث) لعبد الرزاق نوفل[١]، و(قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن)[٢] للشيخ نديم الجسر[٣]، و(الإسلام يتحدى)[٤] لوحيد الدين خان[٥] و (دراسة الكتب المقدسة في ضوء

(١) عبد الرزاق نوفل، (١٩١٧- ١٩٨٤م)، كاتب ومفكر واديب إسلامي، ولد في حي عابدين في القاهرة، حصل على بكالوريوس الزراعة سنة (١٩٣٩م)، وشهادة الدراسات الاستراتيجية القومية من الأكاديمية العسكرية العليا عام (١٩٦٧م)، وكانت له مساهمات فكرية ودعوية إسلامية، من ابرز مؤلفاته: (الله والعلم الحديث) و(القران والعلم الحديث) و(السنة والعلم الحديث) و(المسلمون والعلم الحديث). ينظر: تكملة معجم المؤلفين، ١/٢٨٩-٢٩٠.

(٢) المكتب الإسلامي، ط٣ (بيروت/١٩٦٩م).

(٣) عبد الله نديم حسين الجسر، (١٨٩٧- ١٩٨٠م)، مفتي طرابلس، مفكر وقاضي وسياسي لبناني، ولد في طرابلس في لبنان، انهى دراسته في حمص ثم أكملها في بيروت، وبعدها التحق بالعمل في سلك القضاء، تولى مناصب عدة منها: مستشار بمحكمة الاستئناف، عضو في مجلس العدل والقضاء الشرعي، انتخب عام (١٩٥٧م) نائبا عن مدينة طرابلس بمجلس النواب اللبناني، ومفتيا لشمال لبنان، وعضوا في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ابرز مؤلفاته: (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقران) و(الموجز في الفلسفة العربية) و(ألفية الجسر في علم أصول الفقه). ينظر: تكملة معجم المؤلفين، ١/٧٠١- ٧٠٢ ؛ علماء ومفكرون عرفتهم، ٣/١٠٩- ١١٦.

(٤) بتحقيق عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط٦ (بيروت/١٩٨١م).

(٥) وحيد الدين خان، فيلسوف ومفكر هندي، ولد في مدينة أعظم كراه شرقي الهند عام (١٩٢٥م) وتلقى تعليمه هناك في إحدى المدارس الإسلامية، أتقن الانجليزية، وقرأ في كتب=

المعارف الحديثة)[١] لموريس بوكاي..[٢] وغيرها لكي يجد الكثير الكثير)) [٣].

وقد عَزّزت الكشوفات العلمية مدارك الإنسان وفهمه لهذه الحياة، فتمكّن من توظيف قوانين الفيزياء والكهرباء والميكانيك والكيمياء التي اكتشفها في صناعة المكائن والسيارات والطائرات والصواريخ والأجهزة الحديثة من حاسبات وأجهزة اتصال نقالة وغيرها... وقد كان للبحث العلمي الدور الكبير في تنمية القدرات الذهنية والمعلوماتية ومن ثم الصناعية في العالم الغربي، حتى غدت الدول المتطورة تزيد من نسبة المبالغ السنوية المخصصة للبحث العلمي من مجموع الدخل القومي للبلاد، وذلك لأنها أخذت تلمس ثمار استثمار الكفاءات العلمية في بلادها عاما بعد آخر.

=الشيوعية أكثر من عشرة آلاف صفحة، فأقدم على التأليف في نقدها ونقضها، أسهم في العديد من المؤتمرات الدولية، وقدم فيها كثيرا من البحوث، تولى رئاسة التحرير لجريدة الجمعية الأسبوعية في (دلهي)، لمدة سبع سنوات، واصدر بعدها مجلته الشهرية (الرسالة) وتعتبر من أوسع المجلات الإسلامية انتشارا في الهند، كما قام بإنشاء (المركز الإسلامي للبحوث والدعوة) في عاصمة الهند- دلهي، عام (١٩٧٠م)، من ابرز مؤلفاته: (الإسلام يتحدى) و(الدين في مواجهة العلم) و(حكمة الدين). ينظر: علماء ومفكرون عرفتهم، ٣/٣١٧- ٣٢٦.

(١) مكتبة مدبولي، ط٢ (القاهرة/٢٠٠٤م).

(٢) موريس بوكاي، (١٩٢٠- ١٩٩٨م)، طبيب وجراح فرنسي، ولد في مدينة بون ليفيك في شمال غرب فرنسا، نشأ مسيحيا كاثوليكيا، ونال شهادته من كلية الطب في جامعة باريس فكان من الأوائل، عمل بعيادة الجامعة جراحا في الأمراض الباطنية تخصص طب الأمعاء، وكان إلى جانب عمله يقوم بالتدريس في الكلية بشكل متقطع، كان الطبيب الشخصي للملك فيصل آل سعود، أعلن إسلامه في مؤتمر طبي عقد في المملكة العربية السعودية، متأثرا بقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾، (يونس: ٩٢). فصرخ بأعلى صوته قائلا: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن). ينظر: علماء ومشاهير أسلموا، نايف منير فارس، ص ١٦-١٩ ؛ أحدث٣٠ شهيرا دخلوا الإسلام، صبحي سليمان، ص ٢٥-٣٠ ؛ www.wikipedia.org

(٣) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٥٢.

ويؤكد الدكتور عماد الدين خليل على ((ان البحث العلمي يعدّ ضرورة من ضرورات الحياة الإسلامية، لا يقلّ أهمية عن العبادة نفسها، مادام انه يمارس هذه الوظيفة الكبيرة في الكشف عن سر الكون والحياة والعالم، ويقود إلى صانع الكون والحياة والعالم وفق اشد الطرائق إقناعا.. وما دام انه يلتقي مع العبادة نفسها في التسبيح للخالق العظيم..)) [١].

مما تقدم يتضح جلياً لنا أن الخلق ما دام على هذه الدرجة من النظام والضبط والدقة، لا بدّ أن يكون صادراً عن إرادة عظيمة قادرة ومدبرة، تتفق الأذهان القويمة والفطر السليمة على وجوده (ﷻ) وارتباط الخلق به، فهو خالق أزلي ليس لقدرته حدود وهو عليم محيط بكل شيء فتبارك الله رب العالمين.

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

الخاتـمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

في ختام هذه الدراسة يجدر بي أن أبيّن أهم النتائج التي وقفت عليها، أوجزها بما يأتي:

١- شجّع الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل وناصرَ فكرة (إسلامية المعرفة)، لأنه يراها ضرورية لترتيب وضع الإنسان في العالم وتنظيم حياته، مما يجعله قديراً على تحقيق طموحاته، فهو يدعو إلى تطبيق الوفاق بين العلوم الإنسانية والتأسيسات الدينية في كافّة الأنشطة والميادين.

٢- إن القيام بمهمة الاستخلاف له أثره في النهوض الحضاري الذي اراده الله تعالى؛ ولما وجد الضعف الشديد عند الكثير من العاملين في عدم الاكتراث بالجانب الحضاري اصبحنا امام ضرورة ملحة في ابراز الصورة الحضارية الناصعة للإسلام وعرضها على الناس كما عرضها القرآن الكريم والسنة النبوية وعلى الطريقة الحضارية البناءة للفرد والمجتمع، ومن ثم ترجمة تلك الصورة الى مبادئ عمل وتنزيلها على ارض الواقع فعلا وسلوكا.

٣- إن الحكمة الإلهية هيأت للإنسان المحيط الملائم لحياته، مسخرا كل ما حوله من شمس وقمر ونجوم وارض خلق فيها مياها ومعادنا ونباتات وحيوانات، ليستثمرها الإنسان في أداء مهمة استخلافه في الأرض، على احسن وجه.

٤- التوازن قائم في الكون كله: في السموات والأرض، في النجوم والشمس والقمر، وفي الجبال والوديان، في اليابسة والبحار، في الرياح والأمطار، في الثروات الموزعة في الأرض، إنه يكشف لنا دقّة التوازن وعدالته في حكمة ربانية بالغة، وإعجاز إلهي بالغ.

وختاماً أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به وقارئيه.

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

١. أبحاث ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة، د. أبو اليزيد العجمي وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن – فيرجينيا، ١٩٩٤م.

٢. الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، د. عمر عبيد حسنه، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨م.

٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري، (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: علي عوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤. الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٨١م.

٥. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٥ه - ١٩٩٤م.

٦. الأعلام ،خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي (ت:١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢ م.

٧. أولى ملاحم القرن، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة – بيروت، ٢٠٠٢م.

٨. التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار العلم للملايين – بيروت، ١٩٧٥م.

٩. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، شركة نهضة مصر للطباعة – القاهرة، ط٦، ٢٠٠٧م.

١٠. تقريب التهذيب، أبو الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد- حلب، ١٩٨٦م.

١١. تكملة معجم المؤلفين، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم- بيروت، ١٩٩٧م.

١٢. حرية الإنسان في ظل عبوديته لله، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر – بيروت، ١٩٩٢م.

١٣. حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل، دار الثقافة- الدوحة، ١٩٨٦م.

١٤. رسالة التوحيد، الإمام محمد عبده، دار النصر- القاهرة، ١٩٦٩م.

١٥. ريبورتاج حوار في الهموم الإسلامية، د. عماد الدين خليل، دار الحكمة، لندن، ٢٠٠٢م.

١٦. شخصيات لها تاريخ، د. محمد عمارة، دار السلام، القاهرة – الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

١٧. الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، (ت:٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

١٨. العالم يتصفح كليات رسائل النور، دار سوزلر- القاهرة ، (بلا).

١٩. العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ترجمة: محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة- القاهرة ، ط٤، ١٩٦٢م.

٢٠. علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف – الرياض، ط ٤، ١٩٩٢م.

٢١. مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية – دمشق، ٢٠٠٥م.

٢٢. المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن وانعكاساتها الأخلاقية ، د. هشام بني خلف، جامعة المدينة العالمية ، ماليزيا ، (بلا).

٢٣. متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، د. عماد الدين خليل، دار الحكمة – لندن، ٢٠٠٢م.

٢٤. مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة استانبول للثقافة والعلوم- اسطنبول، العدد (٢)٢٠١٠م.

٢٥. مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، مؤسسة الفكر الإسلامي- طهران، العدد (٢٥)٢٠١٠م.

٢٦. مدخل إلى إسلامية المعرفة، د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ٢٠٠٦م.

٢٧. مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ٢٠٠٨م.

٢٨. معجم اللغة العربية المعاصرة، د. احمد مختار عمر، (ت: ٢٠٠٣م) عالم الكتب- القاهرة، ٢٠٠٨م.

٢٩. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (ت: ١٩٨٧م)، مكتبة المثنى- دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.

٣٠. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان الداودي، دار القلم- الدار الشامية، دمشق- بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣١. ملكية الأرض في الإسلام بين الشرع والوضع والتطبيق، الشيخ عبد الكريم مطيع الحمداوي، متاح على موقع الحركة الإسلامية المغربية، www.elharakah.com.

٣٢. موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر، د. أيوب عيسى أبو دية، مطابع السفير- عمان، ٢٠٠٨م.

٣٣. موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين، د. عزيزة فوّال، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠٠٩م.

٣٤. موسوعة المشاهير، مجدي سيد عبدالعزيز، دار الأمين- القاهرة، ١٩٩٦م.

٣٥. موسوعة دول العالم حقائق وأرقام، محمد الجابري، مجموعة النيل العربية- القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣٦. موسوعة شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث، د. توفيق الواعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة، ٢٠٠٦م.

٣٧. نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل حسين الحلبي الغزي، (ت: ١٩٣٣م)، دار القلم- حلب، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٨. اسلمة المعرفة المبادئ العامة وخطة العمل، الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي، ترجمة عبدالوارث سعيد، دار البحوث العلمية، د.ط (الكويت /١٩٨٣).

٣٩. www. resources eiiit.org//eiiit/eiiit/eiiit_article_read.asp

٤٠. التأصيل الإسلامي لعلم النفس، عبدالله ناصر الصبيح، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٢٢، السنة ٢٢.

٤١. منهجية القرآن وأسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية،محمد أبو القاسم حاج محمد، مكتبة اقرأ، ط٢،(بلا/١٩٩٩م).

٤٢. http://www.saaid.net/daeyat/

٤٣. مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، المركز الثقافي العربي، ط١ (بيروت/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).